القصص

قصة شاءول بن شمويل اللاوى

للاستاذ محمد فريد ابو حديد
وكيل مدرسة القبـــة الثانوية

قد كان لى ولع بالتجوال فى البرارى ، ففيها كان الهواء مما يلذ امتلاء الصدر منه ، وفى سمائها صفاء يروق الابصار لاتدانيه زرقة البحر إلا فى أيام الخريف الوادعة ، ورمال الصحراء أخاذة باللب فى لألائها واختلاف لون حصاها ، فأذا ماجرت عليها قطرات من الغيث فى الشتاء غسلت عنها ماينشاها من التراب ، فاذا هى تزرى باليواقيت واللآلىء ، واذا أسعد الانسان الحظ فجاس خلال تلك الرمال فى عقب سيل لازال منه بقية تجرى فى جدول رأى منها المعجب والفاتن حتى ليتمثل العذراء الخالية وقد راعها ذلك الحصى فليست جانب عقدها النضيد . وقد جمع حب ذلك التجوال بين قلوب مختلفة الاصول متباينة الطباع ، يرضعون جميعهم معا من ثدى تلك الطبيعة الجميلة حتى لقد نما فى قلوبهم إخاء هو أقوى من الاخاء المعتاد إذ قد عرف كل منهم أخاه وكشف عن مخبوئه فى تلك المعاشرة الطويلة ، واعتاد كل منهم ان يكون مستعدا لان يبذل كل شىء حتى حياته ذاتها فى سبيل الاخلاص لصديقه . لاعجب ان تكون الصحراء مهد جلائل الأمور !

وقد قصدت يوما بيت صديق من الانجليز ، وهو ممن يهيمون بالصحراء هياما ، وقصدنا معا الى برية سينا . نقطع الفيافى بمركبة القرن العشرين ونطوى أميالها مرحلة بعد مرحلة ، فكانت صحبة عجيبة من كل الوجوه .

قلت له فى فترة من فترات مابين التفكير المتصل : كانى بك من أبناء الصحراء يامستر لى . فان حبك للصحراء وصبرك على مشقاتها ينبآن عن بدوى فى اصله ،

فقال لى باسما ، ان البدوى وجواب البحار اخوان ، فاذا لم يكن فى دم البدوى فان فى بعض شك دما من جوابى البحار ،

قال لى ذلك وهو يحدق بنظره فى ناحية من الصحراء الى يسارنا ونحن نطوى مراحلها ، ثم قال لى :

انظر الى هذا الموضع . كانى به فى بيت من بيوت الجان ، انى اشعر بانجذاب عجيب نحوه . الا ترى ان نقف هنا قليلا ؟ ان التمتع بالصحراء لايكون الا اذا سرنا فيها كما كان يسير البدو على الابل أو الحمير أو ماسوى ذلك من وسائل السير الوئيد . أما هذه السيارات السريعة فليست هنا الا دخيلة غريبة . انها تدخل السرعة والعجلة والقلق الى ارض خلقها الله لتكون وادعة متئدة مطمئنة

قال هذا وعرج الى الموضع الذى اشار اليه واوقف دولاب السيارة والقينا عصا السير وجلسنا الى جانب صخرة قائمة كانها المائدة ، واعددنا عدة الطعام اذ كان وقته قد أظلنا ، وكان سمرنا على ذلك الطعام حديثا أوحاه الينا الموضع . وأى حديث لمن يسير فى برية سينا أقرب من حديث قوم موسى ؟ لقد كان المكان يوحى به وحيا فاستغرق خيالنا حتى كاننا كنا نعيش فى ذلك الوقت ونحس بما كان ينبض به قلب أهله

كان ذلك الموضع متسعا من الارض تحيط به تلال من كل نواحيه الا من جهة الغرب المائل الى الشمال ، وكان متدرجا فى العلو من خارجه الى داخله ، ولا يكاد تمر عليه ساعة من النهار وليس فى ناحية منه ظل ممتد . وكانت الرياح كلها محجوبة عنه الا ارخاء التى تتهادى اليه من الشمال الغربى . فجلسنا به جلسة هنيئة زادت حديثنا اطمئنانا واستغراقا .

وخاطبت صاحبى فى شىء من الدعابة قائلا ، كم شهدت هذه البقعة من مناظر جليلة ! أترى قد شهد موضعنا هذا بعض اولئك بنى اسرائيل يخرجون صدر موسى بذكريات عدس مصر وفولها ؟ فأجاب صاحبى ، لقد كنت افكر فى هذه اللحظة فى أن مكاننا هذا لابد قد وطئته اقدام من خرجوا من مصر مع موسى ، وكنا قد فرغنا عند ذلك من أكلنا فقمنا نمشى رويدا ونتحدث . وحدث أن ضربت بقدمى حجرا من الاحجار على عادة كانت لى منذ صغرى كنت اعتدتها فى عبث الصبا ، وما كان اشد عجبى اذ رأيت ان ذلك لم يكن حجرا بل كان قطعة من عظام جمجمة آدمية .

اذن لقد شهد ذلك الموضع حادثة انسانية ! واذن فان لذلك الموضع قصته ! فوقفت حيث كنت . وملت الى الموضع لافحص موضع تلك العظمة فاذا فى أبصر عظمة أخرى قد طمرها الرمل .

فتناولت حجرا وجعلت أحفر ما حولها لاستخرجها فرأيتها تتصل بهيكل انسانى . فاعتراني انقباض شديد ، واسترجعت ثم القيت الرمال التى كنت استخرجتها لكى أعيد لتلك العظام مدفنها، وفيما أنا فى ذلك إذ بدا لى سطح من الخشب الصقيل . فتركت ما كنت فيه واقبلت على ذلك الخشب أفحص امره، واذا به غطاء صندوق صغير طوله نحو نصف متر فى عرض اقل من ذلك بقليل وعمق أقل من عرضه. وكان صديقى عندذلك قد بدأ يقبل على مساعدتى اذ رآنى قد عثرت على شيء يستحق الاهتمام ، فاستخرجنا الصندوق من مكانه ونفضنا عنه الرمال، ونزعنا عنه غطاءه فاذا فيه مجموعة من الجلود الرقيقة وقد دب اليها شيء من الفساد من اثر البلى. وكانت على تلك الجلود كتابة ملونة يميل لونها الى السواد ، وكانت بقلم غريب

انتهى بنا السير بعد ذلك الى غايتنا، ثم عدنا وكان ذلك الصندوق قطب حديثنا فى رجعتنا الى القاهرة . فعرضنا فيه الفروض المختلفة وتناقشنا فى قيمة مافيه حتى بلغنا نهاية رحلتنا ، فكان اولى بهم لنا أن نطرق باب صديق من علماء الآثار ليساعدنا على كشف ماوراء ذلك الطلسم

نظر صديقنا العالم الى صحيفة منها نظرة الفاحص ثم قال : « ان هذا خط كاتب مصرى . وهذا المداد مما كان يستعمله الكتاب فى عصر الامبراطورية الثانية فى المحابر النحاسية التى كانوا يضعونها فى مناطقهم . وهذا هو الحرف (الديموطيقى) الذى كانوا يكتبون به فى الدواوين عند ذلك

قال هذا ونظر الى اول سطر من الصفحة طويلا ثم علت وجهه ابتسامة الظفر وقال : (لم يكن كاتب هذه السطور مصريا بل هو (شاءول اللاوى) أحد بنى اسرائيل الذين خرجوا مع موسى من مصر فى أيام (منفتاح) فرعون مصر، وقد كتبها بلغة قومه العبرانيين كاتب بارع

وأخذ يترجم لنا الصحائف واحدة بعد واحدة فاذا هى آية العجب وفريدة الصدف وها هى :

« أنا شاءول بن شمويل بن شمعون اللاوى من عشيرة اللاويين قادة اسرائيل وسادتهم . كنت بمصر مع قومى وكنا فى أرض جاشان مهد ابى وجدى، والارض التى دفنت فيها عظامهما . كنت فى أول الأمر صاحب خاتم الامير (راحا ترع) ثم حدثت الحوادث المشئومة المعروفة فطردت كما طرد كل قومى من خدمة المصريين، وو[illegible] قابنا العبودية . وكنت أنا من حضروا لعمل اللبن من الطين لبناء مدينة (بيثوم) تسوقنا سياط الم[illegible]ين ورؤساء العمل ذوى الأيدى الصلبة والقلوب التى مثل خشب السنط .

وكانت مشقة العمل تزيد من يوم الى يوم ، وكلما مر شتاء علينا جاء شتاء آخر أشد منه برداً ، فامتلأت نفوس الشعب الاسرائيلى من الغيظ والحقد . وبدأوا يسأمون حياتهم، ويتخلصون منها بضرب المقدمين ورؤساء العمل المصريين . وكان الذى يضرب منهم أحد هؤلاء يموت تحت السياط ، وهذه ميتة أهون من الحياة الشاقة التى كان أبناء اسرائيل يحيونها .

وقد جاء رجل من أولاد عمى بنى لاوى اسمه (موسى) كان هارباً من مصر من زمن . وقد عرفته كما عرفه كثيرون من أبناء أعمامى . وكان رجلا رحيما يبكى كلما رأى أحد بنى اسرائيل يضرب ويصيح وتجرى الدماء من جسمه ، فكان فى أول الامر يزورنا فى الليل ليواسينا ، ولا يظهر فى النهار مخافة أن يراه أحد فيعرفه ، فاحبه الشعب المسكين وصار كل فرد منه يرضى أن يقتل فى سبيل حمايته . وأقام سنين وهو على تلك الحال ، وجعل يفهم الشعب أن وراء البرية أرضاً فسيحة يقدر أن يعيش فيها حراً ويجد فيها ماء وطعاماً . ولكن الشعب كان يخاف من البرية ولا يرضى أن يخرج من أرض مصر التى فيها عظام آبائه .

ولكن فرعون مصر عرف من جواسيسه أن هناك رجلا عبرانيا يحرض العبرانيين على العصيان والخروج . وقال له خدمه وعبيده إنه السبب فى تجمع الاسرائيليين وتجمهرهم ومطالبتهم بعبادة إلههم على طريقتهم الخاصة . وقالوا له ان العبرانيين يتظاهرون بأنهم يريدون ان يسمح لهم بالخروج الى البرية لتقديم الضحايا لإلههم بعيداً عن أرض مصر ، والحقيقة أنهم يريدون الذهاب الى أرض الفلسطينيين والحيثيين لمساعدتهم على غزو مصر

فقال لهم فرعون: « وماذا ترون؟ » فقال له عبيده نرى ان تشغلهم وتضيق عليهم الخناق، فمر بمنع التبن عنهم حتى يضطروا لجمع الاعشاب الجافة ليصنعوا بها اللبن وطالبهم بأن يقدموا كل يوم ما اعتادوا ان يقدموه من قبل من اللبن اللازم للبناء »

فأمر فرعون بذلك ومنع خدمه من صرف التبن للشعب المسكين ، وطالبهم بأن يقدموا له كل يوم نفس المقدار الذى كانوا يصنعونه من قبل من اللبن ، مع قيامهم بجمع الاعشاب الجافة لاستعمالها بدل التبن الذى منع عنهم. فكان هذا الامر غير ممكن . فعصا الشعب وامتنع وتجمهر وصاح بفرعون وخدم فرعون . وكان ابن عمى موسى يحرضنا على العصيان ويأمرنا بالخروج معه الى البرية ، ولكنا كنا

نخاف من ذلك فالموت مخيف وإن كانت العبودية صعبة .

وكثر التعذيب والضرب والقتل فينا حتى أننا ضجرنا وفزعنا ، وسمعنا كلمة موسى وقنا لنخرج الى البرية جميعا نساؤنا واطفالنا على الحمير ، وقد لبس النساء الحلى التى استعرنها من تجاراتهن المصريات . وفى الليلة الموعودة خرجنا نغطى وجه الأرض نحو البرية .

وكان الخوف يملأ قلوبنا من جنود فرعون أن تلحق بنا ، فعبرنا الى الصحراء من أقرب طريق ، وخضنا فى البحر باذن الله وبركة ذلك الرجل المبارك (موسى) . وتنفسنا الصعداء عند العيون التى حولها النخيل ، عندما رأينا جيش فرعون قد عجز عن اللحاق بنا وعاد ادراجه بعد أن غرق منه عدد كبير . ويقال ان فرعون نفسه كان من الذين غرقوا فى المياه . غير ان الحرية لا تعطى طعاما ولا ماء . فلما أكلنا الزاد الذى كان معنا بدأنا نفكر فى موقفنا ، وخرجنا الى (موسى) نطلب منه أن يعطينا خبزا ولحما .

اعطانا موسى كل مامعه ، وقال لنا اقتصدوا ولا تأكلوا كثيرا ولكننا لم نقدر أن نمنع الاطفال والنساء من الأكل والشرب ، ولم نقدر ان نمنع بكاءهم عندما نفد ما كان معنا من الزاد ، فقمنا بعد أسبوع من الجوع والعطش وطلبنا من (موسى) أن يطعمنا . وصرخنا له (أعدنا الى مصر . أعدنا الى العبودية . الانسان قد يحيا مع العبودية . ولكنه يموت حتما بلا طعام . نريد الحياة ولو مع العبودية . لا نريد الموت فى هذه الحرية وسط الصحراء » .

لقد غضب موسى وظهر عليه الغيظ ، وكلمنا كثيرا ولكن لم يكن لقوله ذلك الاثر الذى اعتدنا أن نجده فى نفوسنا عندما كنا نسمع الفاظه . وزاد صراخنا وعزم بعضنا على الرجوع .

وفى الصباح التالى ذهبنا الى موسى لنخبره بأننا سنعود الى مصر لنأكل من طعامها ، فوجدناه يصلى ثم أقبل علينا ووجهه يتهلل وقال « اذهبوا الى ذلك الوادى » وأشار بيده الى جهة الشروق . « وهناك تجدون كثيرا من الحب على الأرض . فاطحنوه وكلوا منه فانه مثل الحنطة اذا عجنت بالزيت » ثم أشار الى السماء وقال « انظروا الى هذه الطيور الكثيرة الآتية من البحر . أنها تقع على الارض عند أول وصولها الى البحر فاذبحوا منها وكلوا فان هذا رزق حلال قد أرسله الله اليكم » .

سرنا بعد ذلك فى البرية نأكل من هذا الطعام ولكننا كنا كل يوم أشقى مما كنا فى اليوم الذى قبله . فأين طعام مصر ؟ وأين زيتها الكثير وأعشابها الخضراء المسمنة ؟ وأين ماؤها العذب . وخيراتها العميمة ؟ حقا لقد كنا فيها معذبين ، وكنا عبيداً نسام الخسف والذلة ، ولكن الجوع والموت كانا أفظع فى نظرنا من الذل . اقمنا أكثر من سنة فى البرية ننتقل من مكان الى مكان ومن واد الى واد حتى ذهبنا الى (رفيديم) فى جوار الجبال العالية التى تغطيها ثلوج الشتاء . وقد بلغ بنا الحنين عند ذلك الى مصر مبلغا عظيما واشتد غضبنا على ذلك الزعيم الذى أخرجنا منها .

فهل الحرية تستحق أن نسعى الى القفر من أجلها ؟ وهل الذل والعبودية يستحقان أن يهرب منهما الى الموت ؟ لقد كرهنا كل شىء فى تلك البرية حتى اسم الحرية ، وذكرنا مصر بالحنين بما كان فيها من طعام وشراب ، حتى لقد بلغ بنا الحنين اليها ان نحن الى ما كان فيها من ذل وخسف ، ثم حننا الى النيران التى كنا نوقدها ليلا ونرقص حولها فرحا فى أعياد (رع) و (هاتور) لا بل لقد مالت قلوبنا الى تلك الآلهة المرحة ، ووددنا لو أقيمت لنا تماثيلها الذهبية لنعبدها بدل الآله الذى لا نراه ولا تقام له الأعياد المرحة على شراب البلح والحنطة .

فما كاد (موسى) يصعد على عادته الى الجبل العالى الذى تغطى قمته الثلوج حتى اجتمعنا وصرخنا الى (هرون) وتجمهرنا واجتمعنا حوله ، فلم يستطع أن يمنعنا من أن نصوغ تمثالا (لأبيس) من الذهب الخالص ، وأقمنا حوله الاعياد والأفراح وناديناً بالعودة الى مصر . غير أن (موسى) عاد بعد قليل فرآنا على تلك الحال فغضب وحطم التمثال ، وأوقع بالرؤساء ، ولم يقدر أحد منا أن يقاوم أو يراجع .

وجعل يعنفنا على ما ارتكبناه من الذنب العظيم ، وكنا لا نستطيع أن نرفع أعيننا نحوه . وكأنه أراد أن يعاقبنا على ذلك عقاباً شديداً فما مضت أيام حتى أمرنا بالأهب لغزو بلاد (مواب) . بلاد مواب ؟ أنستطيع أن نحارب جنود (مواب) ؟ وهل خرجنا من مصر لكى نحارب ؟ أى معنى لهذه الحرية وأى معنى لهذا الخلاص ؟ انا لم نفهمه ولم نفكر فى شىء سوى ما كنا فيه من الحرمان . أنحارب ؟ لا ، لا إننا لن نستطيع الحرب مع احد فلنعد الى مصر .

غضب (موسى) غضبا شديداً وصاح بنا « أيها العبيد . انكم قد نشأتم فى الذل وعشتم فى الخسف ، ان دمكم قد تلوث بالعبودية فليس يحمى وليس يغضب . انكم لا تعنون الا بالطعام ، كلوا واشربوا وعيشوا فى الذل والخسف ، فما أنتم الا مثل الانعام لا تعبأون الا بما يملأ بطونكم . لقد حكم على جيلكم أن تظلوا عبيدا لا تهتمون الا ببطونكم حتى تنقرضوا ويفنى كل جيلكم ، فاذا نشأ جيل آخر لم تعهد العبودية استطاع أن يفهم الحرية وأما انتم فستبقون فى

البرية أربعين عاما حتى يموت آخركم فيها، ثم ينهض الجيل الجديد الذى يقدر له أن يفهم حياة الاحرار ويغزو معى بلاد مواب، سمعنا ذلك القول ولم نستطع جوابا ، ولكن قلوبنا كانت تغلى من الغيظ ، ولم يكن موسى سوى ابن عم لى انا شأول بن شمويل اللاوى . فذهبت تلك الليلة الى مضجعى ولم أستطع أن أجد النوم، وسألتنى امرأتى أن أخبرها بما يقض مضجعى فأخبرتها . فقالت لى لمـــاذا لا نعود الى مصر ؟ ، ولم أكن أنتظر أكثر من ذلك ، فعولت على الخروج ليلا والعودة الى مصر فى الطريق الذى أتينا منه . وفى الليلة التالية كنت فى طريقى الى بلاد فرعون . قضيت فى سيرى هذا ثلاثة شهور من هلال أول السنة الى هلال الشهر الثالث ، وكانت هذه الشهور الثلاثة عقابا عادلا على كل ما وقعت فيه من البطر والاعتداء لقد هربت خوفا من الجوع وعدت بنفسى لكى أعرض ظهرى الى سياط عبيد فرعون وأضع يدى فى قيود الذل والظلم لكى أشبع جوعى ، واطعم امرأتى وأبنائى، ولكننى لم أجد ما ابتغيت فقد قبض على (منحوتب) قائد رميد وأرسل ابنائى وامرأتى ليكونوا عبيدا لفرعون، ووضعونى فى السجن لانتظر الموت ، وهنا فى هذه الحجرة ابقانى فى انتظار حكم فرعون .

وانى فى هذه الحجرة المظلمة أجلس الآن فى انتظار الهلاك، ويمر بخاطرى كل ما حدث فى حياتى من الحوادث، بمر كل ما كان فى أيامى الماضية كما تمر حوادث الماضى أمام عين الغريق اذا أشرف على الموت وقد رأيت أن أكتب قصة تلك الحياة لكى أخلف صرخة لمن يجىء بعدى . لقد كنا نهرب فى كل أيامنا من الموت، وها هو يجىء اخيراً ويلحق بنا مع طول هربنا منه . ونرضى بالذل فى سبيل الحياة ، ونرضى بالعبودية والخسف فى سبيل الحصـــول على القوت، مع أن الحيـــاة لا تستحق أن يحياها الانسان اذا كانت حياة ذل وعبودية . ها قد تبهت اخيراً الى ان (موسى) كان عظيما حين دعانا الى البرية وفضل الجوع والموت على حياة الشبع والذل . ولكن كنا قد مشى دم العبيد اجيالا فى دمائنا ، فلم يحم ذلك الدم فى عروقنا غضبا للكرامة والحرية ، ولم نفهم صرخة زعيمنا على وجهها، بل اندفعنا وراءه هربا من ألم السياط ؛ فلما رفع عنا ألم السوط عدنا الى بذل انفسنا الذليلة . لقد أخرجنا صدره كثيرا بنفوسنا الوضيعة ، وهربنا منه خوفا من الموت والجوع وفضلت ان اعود الى ذلى فى مصر لكى اشبع بطنى ، فوجدت الذل والا ء ولكننى لم أجد الطعام الذى يملأ البطن . وها أنذا انتظر الموت الذى استحقه . حقا لقد فهمت الآن قول موسى اذ قال لنا

صديقها عشيقها

رواية مصرية عصرية فى فصـــل واحد

للكاتب الروائى الأستاذ محمد خورشيد

(تتمـــة)

حكمت ـ ، فى عطف ، لا تمكث مرة أخرى يوما كاملا بعيـــداً عنى ولا تحرمنى رؤيتك المحبوبة . انى أحبك يافريد من أعماق قلبى . أحبك بكل ما أملك من قوة وعاطفة .

فايد ـ قلبى يؤمن بحبك ويترك لقلبك تقدير حرارة حبه ومن القلب الى القلب رسول

حكمت ـ (تقترب منه وتحوطه بذراعيها فى حنان وتقول) .

ألم تكن لنا ساعات هنيئة ذكراها السعيدة لا يمكن أن تزول ؟

فايد ـ نعم . نعم

حكمت ـ تعال أجلس بجانبى ولا تتكلم ، لأن صمت المحبين هو نغمة الحب . فلنستمع ترنيم قلوبنا فى سكون .

(يجلسان متقاربين برهة ثم يتعانقان، وبينما يتبادلان القبلات اذا بالباب يفتح ويدخـــل مختار فيراهما على هذه الحال فيقف مصعوقا . فيفترقان ويقفان ، تتقدم حكمت الى مختار وتقول .)

المنظر التاسع

حكمت ، فايد ، مختار

حكمت ـ لا تلمنى يا أعز الاصـدقاء . كنى كريما وسامحنى . لم أتمكن من الدفاع عن صداقتنا القديمة لأنى فوجئت بهجوم حب جديد أخـــذ بمجامع قلبى . غلب سلطانه عزيمتى . قهرت قوته ارادتى . فاصبحت لا حول لى ولا قوة، وخضعت لامره ومن

عند سفح جبل سيناء اننا من جيل مـ ـم ، وانه سيصبر حتى يهلك ذلك الجيل كله فى البرية ، حتى ينهض جيل جديد يفهم معنى الحرية الكرامة . انى الان اسمع ضجة عند باب سجنى وها هو مفتاح الباب يصر ، انتبه ،

الى هنا انتهت القصة التى عثرنا عليها فى الصحراء وحقا قد كان ذلك المكان الذى عرجنا اليه جديرا بأن يكون طلل بناء قديم حصين ، لم يبق منه اليوم الا تلال الرمال ، ولا تزال تحتفظ بالروح الرهيبة التى خلقتها حوادث الماضى فى ثنايا الاطلال .